مقدمة

قد نحسن الظن لو قلنا إن شباب المسلمين وشيوخهم ، قد انقطعوا ، منذ جيل أو جيلين ، عن الفخر بماض لم يصنعوه ؛ وعن الأسى والحسرة لحاضر يزعمون عجزهم عن إصلاحه ؛ وعن الأمل العريض فى مستقبل يلقون عبء تحقيقه على الأجيال بعدهم . ذلك أنهم كانوا ينتظرون إحدى المعجزات لكى تقودهم إلى الحرية عفوا ، وإلى المجد دون أن يبذلوا من ذات أنفسهم شيئا .

واليوم يوشك القوم أن يعترفوا أن النهضة لا تأتى دون جهد ، وإنما تنبعث من أعماق الأمة ، وتصنع بأيدى أبنائها وعلى عيونهم ، فإن البكاء لا يحيى الميت ، والأنين لا يرد المجد الضائع . ولهم بعد ذلك أن يدركوا أن تدهورهم أبعد عهدا مما يظنون . إنهم يرجعونه عادة إلى زمن الحروب الصليبية أو هجوم التتار على بغداد ، مع أنه بدأ فى الحقيقة مع ظهور النظام الملكى الاستبدادى ، وما صحبه من انقسام المسلمين إلى فرق ومذاهب دينية متناحرة ، تزعم كل فرقة منها أنها على الحق وحدها . ولهم أن يدركوا — لو شاءوا — أن مما عجل بركودهم أنهم أفسحوا صدورهم لنوع غريب من التصوف جاءتهم عناصره من الغرب والشرق على حد سواء ، فحجب عنهم عقيدة التوحيد ، واتجه بهم قدماً نحو لون من الشرك الخفى أو الصريح . ثم زاد بهم البلاء حدة والتدهور عنفاً ، رغم تلك اليقظات العابرة التى كانت توحى إليهم أنهم ما زالوا بخير .

إن تقهقر المسلمين ، الذى بدأ منذ عصور متطاولة ، قد أدرك غايته فى القرن الثامن عشر الميلادى . وعندئذ أحس هؤلاء أنهم قد تدهوروا حقيقة . وما كانوا يستطيعون ألا يشعروا بهذا التدهور ؛ فإن جيوش الغرب عادت مرة أخرى توقظهم من أحلامهم وغرورهم ، وتنبئهم أنهم لم يعودوا يمثلى الحضارة الإنسانية التى ألقت إليهم مقاليدها طيلة أربعة أو خمسة قرون . وهكذا كانت الكوارث الكبرى ، التى نزلت بمختلف الأقطار الإسلامية فى العصر الحديث ، هى التى كشفت لأهلها عن مقدار ما انحدروا إليه ، فحاول هؤلاء الوقوف أمام موجة الزحف الأوروبى ،

وقام مصلحوهم ينبهونهم إلى الخطر الجلل الذى يوشك أن يطمس حضارتهم وينتزع من أيديهم ما بقى فيها .

لكن تلك الموجة كانت أقوى من أن تقف أمامها أمم منحلة متخاذلة لا تربطها رابطة قوية من الأخوّة أو التعاون ؛ فسقط كثير منها فى حوزة الغرب ، واستمر الزحف الأوروبى فى عنفوانه إلى عهد قريب . ولم يبطىء من سيره لكى يقف ثم ينحسر إلا بعد أن ظهرت ثمرة الجهود التى بذلها كبار المصلحين من أمثال صاحب الحركة الوهابية ، وجمال الدين الأفغانى ، وأحمد خان ، ومحمد عبده ، وآخرون كثيرون . فدبت روح المقاومة فى تلك الشعوب الخامدة ، وقامت الثورات متتابعة على حكم الغرب ، وعلى الخونة من أبناء الدول الإسلامية أو أمرائها .

وقد أكدت هذه الثورات المتلاحقة أن يقظة المسلمين شاملة ، وأنها تسير فى الاتجاه الصحيح ؛ لأنها ليست قاصرة على الإصلاح الدينى وحده ، ولا على الإصلاح السياسى وحده ، ولا على النهضة الاقتصادية وحدها ، ولا على النهضة العلمية وحدها ؛ وإنما تبسط ظلها على مختلف هذه النواحى الاجتماعية الرئيسية فى كل دولة جديرة بالحياة . ولا ريب فى أن تعدد نواحى الإصلاح كفيل بتحقيق الأمل فى المستقبل الذى تبنيه الأجيال الحاضرة فى مختلف الأقطار الإسلامية . ومما يؤذن بأن هذا الأمل ليس حلما يستحيل تحقيقه هو ما نراه من التجاوب العميق اليوم بين المسلمين إن فى المشرق ، وإن فى المغرب .

وهذا التجاوب هو مظهر الرابطة الإسلامية التى بدأت تتأكد من جديد بين المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، بعد أن كادت تنفصم عروتها بسبب ضروب الاستبداد السياسى والروحى التى استسلم لها المسلمون ، أو اضطروا إلى الاستسلام لها ، منذ أن غابت عن قلوبهم الأصول الدينية الأولى التى حجبها جدل الفقهاء فى العقائد وتعنتهم وتشددهم وغلوهم فى التفريع والتشريع ، والتى صمت آذانهم عن سماع ندائها بسبب صخب الدفوف والمزامير فى حلقات أهل التصوف .

ولا أدل على نهضة الأمة الإسلامية من أنها أخذت تفسح صدرها لكل رأى حر وجعلت تؤمن أن العلم ليس عدواً للدين ؛ بل هو حليفه وناصره ؟

محمود قاسم .